

إلياذة العرب وتغريبهم من مصر إلى تطوان

السيرة الهلالية.. ملحمة غنائية تحتفي بالشعر والفروسية وتمجد المرأة



السيرة الهلالية (لوحة للفنان حسن الشرق)

وأبطال السيرة الهلالية مثل "أبو زيد الهلالي ويونس ودياب بن غانم"، وكذلك أسماء نساء مثل "الجازية الشريفة وعزيرة الهلالية وخضرة الشريفة والدة أبو زيد وشقيقته شبيحة".

أمرأة بألف رجل

اللافت أن المرأة في السيرة الهلالية قد احتلت مكانة اجتماعية مرموقة وصلت حد الحكمة والقيادة والمنازلة بالسيوف والأشعار، وذلك رغم التركيبة البديوية التي تغفل عن تقدير المرأة والإعانة لحكمها وزعامتها، وهو ما نلاحظه إلى اليوم في المجتمع الصعيدي على وجه التحديد.

خاطئ من يظن أن الوسط البدوي في المجتمعات العربية تكوري النزعة، وينفرد فيه الرجال بالقرار بل الأمر يبدو معكوسا، وتخسر المرأة في المدن والأماكن الحضرية حضورها لصالح الذكور.

وفي هذا الجانب، تقول الباحثة سارة السهيل "تصنع المرأة في السيرة الهلالية أسطورة بخلدتها التاريخ وتبقي رمزا للبطولة الإنسانية كما هو الحال مع الجازية الهلالية التي نسجت حياتها أساطير من القوة وفنون الإدارة والحكم بالماثر والبطولات في قالب شعري ملحمي ما زالت تتردده المحافل الغنائية الريفية في الشريط الممتد طيلة الشمال الأفريقي. أبطال الملحمة الهلالية كثر، ومختلفون في نزعاتهم وأهوائهم، فمن يقع التفتي بأمجاده لدى عرب صحراء سناء، قد يصبح جيانا وعديم المروءة في ملاحم وروايات الشمال الغربي التونسي أو الشرق الجزائري ذي الأصول الأمازيغية.

أليس التاريخ هو ما يكتبه المتفوقون ويقندي فيه المغلوب بالغالب وفق نظرية ابن خلدون؟

كما أن نزعات التشدد في الدين بعيدة كل البعد عن المجتمعات القبلية، والدليل على ما تقدم هو خلو السيرة الهلالية من أي جدال في الدين، وتحتم كل الصراعات في التغريبة إلى مجموعة من القيم السائدة لدى عرب ما قبل الإسلام، ويبدو ذلك واضحا حتى في أسماء الشخصيات، مما يبين أن الوازع الديني في المجتمع البدوي ضعيف ويكاد لا يظهر.

والإلى جانب القيمة الأدبية للسيرة الهلالية من حيث الخيال والتشويق عبر كل ما يتوفر في الحكاية من حبكة وإحالات، فإنها تكتسي قيمة أسنوية وشديدة العمق والدلالة، إذ تعد وثيقة لا غنى عنها في دراسة اللهجات المنتشرة في مصر وباقي أقطار المغرب العربي، وتتوزع هذه اللهجات بحسب مساحة وجغرافية انتشار لهجات بني هلال وبوادي الشمال الأفريقي من مصر إلى المغرب، حتى يلتقي باسماء متداولة ومألوفة قد استلهمت من شخصيات

أن السيرة الهلالية "توافق التاريخ في خطوطها العريضة، لكنها تركت العنان للخيال على مَرَّ الزمان ليبدع ويخترع، إلى أن أصبحت السيرة تسجل لنا قصصا عجيبة وجذابة في آن واحد".

وتضيف القريش، التي خاضت تجربة ميدانية في قرى الجزائر تجمع خلالها أخبار السيرة، أن هذه الملحمة الأخاذة "تبت في الأنفوس الدهشة والإعجاب وتجعلنا نعيش أحداثها ونتفاعل مع أبطالها، كما تبرهن لنا السيرة من خلال مغامرات أبطالها عن أنهم أجداد لأغلب أبناء وطننا، وهم يتحركون في سيرتهم المذهبة بين الأسطورة والتاريخ".

ووصف الأدب الشفهي عبر العصور بـ"التاريخ الصغير"، وتمسك به الدارسون وقدره أكثر من تدوين السير والوقائع، وفي ذلك يقول الباحث المغربي "إن كان التاريخ رواية وقائع، فإن الرواية تاريخ متوقع".

قصص حب أسرة

التغريبة الهلالية تنتمي إلى ذلك الصنف من الأدب التاريخي الذي ظلت الأجيال تتناقله بالتواتر من صحراء نجد وصعيد مصر شرقا، إلى تونس وأطراف الجزائر غربا، وذلك عبر مدونات تحفي بالماثر والبطولات في قالب شعري ملحمي ما زالت تتردده المحافل الغنائية الريفية في الشريط الممتد طيلة الشمال الأفريقي.

أبطال الملحمة الهلالية كثر، ومختلفون في نزعاتهم وأهوائهم، فمن يقع التفتي بأمجاده لدى عرب صحراء سناء، قد يصبح جيانا وعديم المروءة في ملاحم وروايات الشمال الغربي التونسي أو الشرق الجزائري ذي الأصول الأمازيغية.

وعلاوة على ذلك، فإن قبيلتي بني هلال وبني سليم اللتين شذتا الرحال نحو بلاد المغرب بحثا عن الماء والكلأ، لم تكونا على أشد التوافق والانسجام، وإن كانا من بطون قيسية مشتركة، فالتطاحن والصراع سيكونان سيدا المشهد أثناء التغريبة التي تعج خلفات وديانس، وكذلك تنضج شعرا وحكايات، وقصص حب أسرة.

وفي هذا الصدد، يقول الباحث المصري إبراهيم النجار "برزت التغريبة الهلالية من نجد إلى شمال أفريقيا كعلامة فارقة في أشعار البدو القيسيين، وتروي قصة خروج شعراوي بحثا عن الكلأ، لكنها استمرت قرنا أو يزيد، وخلفت تراثا

أدبيا شعبيا من ملاحم وسير وأشعار وأبطال أسطوريين". وكفى أن يرتحل المرء في أرياف وبوادي الشمال الأفريقي من مصر إلى المغرب، حتى يلتقي باسماء متداولة ومألوفة قد استلهمت من شخصيات الباحثة الجزائرية روزلين ليلي قريش،

أسطورة التراث الإنساني، وهي سيرة بني هلال التي جمعها وكتبها المرزوقي وأعدّها المخرج التونسي حافظ خليفة.



هي ملحمة طويلة قبيل إنها تقارب مليون بيت من الشعر، وهو رقم مبالغ فيه بالتأكيد، لكنها تتفرع وتتناسل عن قصص جانبية يتفانى الرواة والشعراء الشعبيون المتخصصون ويتفننون ويثمنون في إرائها جيلا بعد جيل، فغدت على مر العصور أشبه بكرة تلج مندرجة شأنها شأن بقية الملاحم الشعبية، إذ تبدأ جذورها عند سيرة الزير سالم جد الهلالية ثم تمتد لتشمل تغريبة بني هلال وخروجهم إلى تونس.

هو مبروس العرب

تقتضى ابن قرية ابنود الصعيدية حكاية السيرة التي تربى عليها من أفواه الحكّائين العرب، عند طاحونة قديمة ومنسية قيل إنها شهدت أجمل الملاحم الشعرية.

أوغل "الخال" الذي يحلو لبعضهم لتلقيه بـ"هومبروس العرب"، في الذهاب بعيدا صلب السيرة التي فتنته، وعرف كيف يفرق بين ما يروى في الشرق وبلاد المغرب دون مفاضلة ويكثر من الأمانة والتقدير. ففي سرديّة المغرب الكبير، يظهر بطل السيرة وهو الزناتي خليفة الذي وقف يدافع عن أرضه تونس

وبلاذ ضد الغزاة الغاصيين المهاجمين من الشرق، والذين جاؤوا ليستولوا على الأخضر واليابس بقيادة "الوحش الأسود" أبو زيد الهلالي، وفي تلك الرواية يظهر الزناتي في أقوى وأروع أيسات البطولة، ثم المقاومة، بعد الإحلال، وهو نموذج البطل الشعبي المناضل في السيرة، وهكذا يختلف منظور السيرة حسب زاوية النظر.

الآن صار كل عشاق السيرة الهلالية و"مدمنيها" ينشدون المتعة. ولا شيء غير المتعة. بصرف النظر عما يمكن أن يؤوّل أو يقال عن الخلاف السنّي الشيعي وقتها، أو ما يقرأ عن حساسية مشرقية مغربية مستدامة. وفي هذا السياق، ترى الباحثة الجزائرية روزلين ليلي قريش،

العربية إلى صعيد مصر، ومنه إلى بلدان شمالي أفريقيا، وحوادث هذا الانتقال ووقائع الحروب بين الهلاليين ومن دخل معهم إلى بلاد المغرب ومن كان في هذه البلاد من قبائل صنهاجة وزناتة الأمازيغيتين.

في مصر غصبا، واستقروا على رأي مفاده ضرورة الانتقام من الحكم السنّي الصنهاجي عبر تسليط قبائل بني سليم وبني هلال عليهم، فإن انتصرت الدولة الصنهاجية تكون الدولة العبيدية قد تخلصت من هذه القبائل المتعبة، وإن انتصر بنو سليم وبني هلال، فإنهم يكونون بذلك قد انتقموا من عدوهم الدود المعز بن باديس.

بذكر المؤرخون أنه قد شرع في إغراء القبائل المقيمة على ضفاف النيل وتم دمه بالمال والسلاح، وأبحت لها منطقتا برقة والقيروان. لتبدأ حلقة الصراع العنيف بين المعز بن باديس والقبائل العربية المدعومة من الفاطميين. وهكذا هزمت هاتان القبيلتان المعروفتان بالعناد والشدة ابن باديس، ووصلتا تونس وحاصرتا القيروان، فأخذت سليم صحراء طرابلس بينما أخذ بنو هلال تونس وغربها.

هنا تتوقف السرديات التاريخية حول حيثيات تحرك قبائل بني هلال وخلفياتها السياسية لتبدأ الرواية الأدبية الملحمية فتشغل الأذهان وتسلب الأسباب أكثر من الجدل القائم حول الأسباب والغايات والنوايا.

روت السيرة الهلالية مراحل تغريبة بني هلال وانتقالهم من نجد في الجزيرة

وقد سبق، ومنذ ثلاث سنوات، أن احتفل المهرجان الدولي للصحراء بمدينة دوز التونسية بمئوية الأديب الراحل محمد المرزوقي، وذلك من خلال ما وصف بـ"فخر الملاحم العربية

رغم انقطاع الجمهور عن حضور العروض المسرحية، امتثالا للتباعد الاجتماعي المفروض، يستعد مسرح البالون بالقاهرة لإطلاق العرض الغنائي "التغريبة.. بنت الزناتي"، على خشبة قاعة صلاح جاهين بمسرح البالون. والعرض مستوحى من السيرة الهلالية التي عشقها العرب، من الحجاز إلى تطوان، وإن دارت أهم فصولها في القيروان. لكن ترى ما الذي جعل من التغريبة الهلالية معينا ينهل منه الشعراء والرسامون وكتاب الدراما، فتعددت الرؤى والاقتراسات وتلوت السرديات؟

بلاد المغرب ومدنها، ويعزى ذلك إلى البيئة الصحراوية التي جاؤوا منها وعدايمهم لكل مظاهر التمدن.

كان ذلك عقابا وتاديبا لوالي تونس المعز بن باديس الصنهاجي الذي أوقف الدعاء للخليفة الفاطمي وأعلن التحاقه بالخليفة العباسي، إلى درجة أن شاعري القيروان ابن رشيق وابن شرف اللذين هربا مع الآلاف من الهاربين إلى صقلية، يصفان هؤلاء الهلاليين بـ"الكفر والنوحش".

لكن كتابا ومؤرخين كثيرين يدينون لقبائل بني هلال بنشر العربية، ويرون في ما ذهب إليه العلامة التونسي، مبالغة وتجنبا على هذه السيرة وأبطالها الذين يشهد لهم بالفروسية والروح الشعرية، والشهامة والذود عن قيم إنسانية تشترك في تمجيدها البشرية وتقدر خصاها، على غرار ما يروى عن قبائل الفورماند والفايكنغ في الشمال الأوروبي، رغم ما لصق بهم من صفات كالبربرية والوحشية، وذلك في انطباعات فوقية، وتعسفية أحيانا.. ليس التاريخ هو ما يكتبه المتفوقون ويقندي فيه المغلوب بالغالب، وفق نظرية ابن خلدون نفسه؟

ومهما يكن من أمر، فإنه، وحين ثارت بلاد المغرب على الحكم الفاطمي، وخلع ملك صنهاجة المعز بن باديس (1062 - 1068) طاعة الفاطميين منحو لا إلى الخليفة العباسي، استشاط هؤلاء في مصر غضبا، واستقروا على رأي مفاده ضرورة الانتقام من الحكم السنّي الصنهاجي عبر تسليط قبائل بني سليم وبني هلال عليهم، فإن انتصرت الدولة الصنهاجية تكون الدولة العبيدية قد تخلصت من هذه القبائل المتعبة، وإن انتصر بنو سليم وبني هلال، فإنهم يكونون بذلك قد انتقموا من عدوهم الدود المعز بن باديس.

إلى الخليفة العباسي، استشاط هؤلاء في مصر غضبا، واستقروا على رأي مفاده ضرورة الانتقام من الحكم السنّي الصنهاجي عبر تسليط قبائل بني سليم وبني هلال عليهم، فإن انتصرت الدولة الصنهاجية تكون الدولة العبيدية قد تخلصت من هذه القبائل المتعبة، وإن انتصر بنو سليم وبني هلال، فإنهم يكونون بذلك قد انتقموا من عدوهم الدود المعز بن باديس.

الأسباب والنوايا

بذكر المؤرخون أنه قد شرع في إغراء القبائل المقيمة على ضفاف النيل وتم دمه بالمال والسلاح، وأبحت لها منطقتا برقة والقيروان. لتبدأ حلقة الصراع العنيف بين المعز بن باديس والقبائل العربية المدعومة من الفاطميين. وهكذا هزمت هاتان القبيلتان المعروفتان بالعناد والشدة ابن باديس، ووصلتا تونس وحاصرتا القيروان، فأخذت سليم صحراء طرابلس بينما أخذ بنو هلال تونس وغربها.

هنا تتوقف السرديات التاريخية حول حيثيات تحرك قبائل بني هلال وخلفياتها السياسية لتبدأ الرواية الأدبية الملحمية فتشغل الأذهان وتسلب الأسباب أكثر من الجدل القائم حول الأسباب والغايات والنوايا.

روت السيرة الهلالية مراحل تغريبة بني هلال وانتقالهم من نجد في الجزيرة

وقد سبق، ومنذ ثلاث سنوات، أن احتفل المهرجان الدولي للصحراء بمدينة دوز التونسية بمئوية الأديب الراحل محمد المرزوقي، وذلك من خلال ما وصف بـ"فخر الملاحم العربية

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

من قال إن العرب يفتقدون في تاريخهم إلى ملاحم كما هو الشأن بالنسبة إلى الإغريق والرومان وبقية الشعوب التي تتباهى بإرائها في هذا الجنس الأدبي والغنائي الذي يخلد بطولاتها وسيرها الشعبية، ولديهم في موروثهم الشعبي ملحمة من مليون بيت شعر يتباهون بها وتخلد بطولاتهم؟

ملحمة طويلة يتفانى الرواة والشعراء الشعبيون المتخصصون ويتفننون في إرائها جيلا بعد جيل

إنها السيرة الهلالية، أشهر السير الشعبية العربية، ملحمة طويلة تصف هجرة بني هلال وخروجهم من ديارهم الخرمية في عالية نجد، وهي السيرة الأكثر رسوخا في الذاكرة الجمعية. وإن أضفى عليها الخيال الشعبي ثوبا ففضفاضا باعد بين الأحداث وبين واقعها، وبالع في رسم الشخصيات.

رواية شفاهية

تلقي المسرحية الضوء على عدد من أبطال التغريبة الهلالية لتدور أحداثها حول الصراع بين "دياب بن غانم" و"سعد بن الزناتي"، التي سلّمت مفاتيح بلادها لبني هلال وكانت سببا في مقتل والدها "الزناتي خليفة"، وذلك برؤية معاصرة لسيرة أجدادهم النقاد والدارسون والمؤرخون أهم ملحمة في تاريخ العرب وشمال أفريقيا. بدأت أحداثها في منتصف القرن الثاني عشر، وتوالت على مدى بضعة قرون، لتشمل مساحة جغرافية تنطلق من الحجاز مروراً بصعيد مصر ومنه إلى بلاد المغرب العربي، تنقل بالتواتر والرواية الشفاهية، مؤسسة لأهم الملاحم الغنائية في تاريخ المنطقة.

تُعرف السيرة الهلالية أيضا بالهجرة القيسية، نظرا إلى أن أغلب القبائل المهاجرة، آنذاك، كانت تندرج تحت الفرع القيسي من العرب العنانية، حسب مقدمة عبد الرحمن بن خلدون (1332 - 1406) الذي اُتنب في الحديث عنهم، وخصص تلك الهجرة التي وصفت بالمليونية بابا تحت عنوان

"الخبر عن دخول العرب من بني هلال وسليم المغرب". ولم يتوان مؤسس علم الاجتماع، وصاحب "كتاب العبر وديوان المغتد والخبر في أيام العرب والحكم البربر، ومن عاصرهم من نوي السلطان الأكبر" عن وصفهم بـ"الهمجية والبعد عن المدنية والعمران".

وتتفق بعض المراجع التاريخية على أن الهلاليين قد أحرقوا ودمروا حضائر



أبو زيد الهلالي أشهر أبطال الملحمة